التأويل التقابلي في سورة الفاتحة
قراءة من منظور محمد بازي

أ.م.د. علي محمد ياسين
علي جعفر حسن
كلية العلوم الإسلامية / جامعة كربلاء

Contrastive interpretation in Surat Al-Fatihah
Reading from the perspective of Muhammad Bazi

Asst.Prof.Dr. Ali Muhammed Yassin
Ali Jaafar Hassan
College of Islamic Sciences / Karbala University
Email: alrobuieali@gamil.com

ملخص البحث

هذه الدراسة محاولة لإلقاء الضوء على توظيف الناقد البلاغي المغربي (محمد البازي) نظرية التأويل التقابلي ؛ لتحقيق نوع من انسجام الفهم عند المتلقي عبر تحفيز مقدرته الإدراكية والتأويلية لإحداث مجال منتِج من التقابلات الدالة بين بنى النص وتمثّلاته، وذلك انطلاقا من كون التقابل طريقة في التأويل البشري صالحة للأزمنة والأمكنة كلّها، فضلا عن كونه خيطا متناوبا بين الوضوح والخفاء تنتظم على وفقه النصوص التي تمتاز بالثراء، ومنها النص القرآني الذي تُعد معانيه المتقابلة وجها من وجوه بلاغة الخطاب القرآني الذي نجد أمثل تجلّياته في سورة الفاتحة التي يقاربها الناقد المذكور في أحد كتبه: (تقابلات النص وبلاغة الخطاب) سعيا إلى بناء أنموذج تصوري وإجرائي عبر إحداث تقابل تأويلي كاشف عن المعاني والعناصر المكوّنة للنص المذكور.

الكلمات المفتاحية : تأويل، تقابل، سورة الفاتحة، محمد بازي.

Abstract

This research sheds light on the Moroccan researcher (Mohamed Bazi)'s attempt to invest in the concept of (cross-interpretation) by describing the opposite a universal characteristic and a method of human interpretation valid for every time and place and the corresponding meanings are one of the faces of the rhetoric of the Quranic discourse in general especially through his study of Surat Al-Fatihah In his book (Interview of the Text and Rhetoric of Discourse Toward Interpretative Interpretation) this concept opens without hindering the realization of the dimensions of the textual levels but rather it allows summoning everything that facilitates understanding vaccination or enrichment in order to enable the interpreter and allow him to identify possible textual relationships in what constitutes meanings The text is the subject of interpretation whose field of application was found in the study of the aforementioned researcher through Surat Al-Fatihah which is reduced to the entire Qur'an adhering to the same Muslim his existence and his thinking.

Keywords: interpretation contrast Surat Al-Fatihah Muhammad Bazi.

المقدمة

أدخلت بعض النظريات والمناهج الحديثة إضافات ملموسة في قراءة النصوص المختلفة، ومنها النصوص الدينيّة المقدسة، فرسمت بذلك حدودا جديدة للنصوص المقروءة؛ بات من الضروري وجود مراجعات تنقد هذه الإضافات وتعيد تقييمها وجدارتها؛ لكي تتأسس مناهج جديدة فاعلة، ومثمرة للتعامل مع النص القرآني وفهمه، خاصّة ونحن نحيا عصرا من الفوضى والاضطراب المنهجي الذي أصبح ذا خطر شديد على النصوص المقدسة، إنّ لم تُقارب بالحذر اللازم، وبالانضباط المعرفي القادر على منح هذه النصوص قابلية الإنتاج المثمر لغةً ودلالةً ومعنى.

ومن هنا كانت هذه الدراسة التي وجدت في قراءة الناقد المغربي (محمد بازي) لسورة الفاتحة وتأويلها تأويلا تقابليا تتفاعل في إنتاجه أنساق معرفية متعددة ، خطوةً بنّاءةً في هذا المجال، ولا سيما أنّ قراءته هذه تعدّ درسا في التطبيق التأويلي من حيث أنّه يمثل تجسيدا نصيا للمستوى التصوري من الفهم على وفق نظرية التقابل التي تبناها، وهي نظرية تقوم على مبدأ التقابل أو (التواجه، أي وجها لوجه) الممكن إحداثه –عند التعامل مع النص– بين شيئين أو أكثر (بنيتين أو أكثر) اعتمادا على داخل النص ، أو على إحالاته الخارجية بهدف إنتاج المعاني الممكنة من هذا التواجه المتقابل وصولا إلى تأويل المعاني المنتَجة تأويلا بليغا ينسجم وبلاغتها النصيّة، الظاهرة الجلية والمتخفية المتوارية في نسيج النص اللغوي.

وقد توزعت الدراسة بين مفصلين رئيسين، اهتم الأول منهما بوضع إطار نظري (موجز جدا) لبعض المصطلحات التي اشتغل عليها بازي موظفا إياها لإبراز مشروعه المعرفي الذي يحمل خصوصية بلاغية – نقديّة تنفتح على العلوم الأخرى المجاورة لتسند الكفاية التأويلية بما يمدها من المعارف المطلوبة.

في حين عني المفصل الثاني ببيان الكيفية التي قرأ فيها هذا الناقد البلاغي سورة الفاتحة، اعتمادا على ما توافر عليه بناؤها اللغوي من معان متقابلة تقابلا متعددا متلوّنا وقابلا للتجريب المعرفي، وما هذه المعاني المتقابلة في النص إلّا صورة من صور وجودنا الكوني

المتقابل نفسه والمحتاج –حاله حال النص نفسه– إلى تشخيص حدود انتظامه ، وبيان دورة تجدده التي تمنحه الحياة وتمنع عنه التسيب واللا جدوى.

وقد ختمنا الدراسة بمجموعة النتائج المتمخضة عنها، وبقائمة المصادر والمراجع التي اعتمدتها.

المبحث الأول: في مفهوم التأويل التقابلي عند محمد بازي

محمد بازي باحث أكاديمي وأديب وناقد غزير الإنتاج المعرفي والإبداعي، وقد توزعت أفكاره في مجالات مختلفة من الكتابة التي شملت عناية خاصة بالنقد البلاغي، وبالنشاط التأويلي الذي أبرزَ هذه العناية في أطروحته للدكتوراه (التأويلية العربية) وفي تحليل الخطاب، ومناهج تدريس العلوم العربية، ثم الكتابة الأدبية، وله بذلك كلّه مجموعة من الكتب النقدية والبلاغية والتربوية والإبداعية المنشورة في أماكن مختلفة من البلاد العربيّة، وقبل الخوض في تحديد مفهوم بازي للتأويل التقابلي؛ علينا أنْ نحدّد مفهومه للنص على اعتبار أنّ التأويل نشاط ذهني يهدف إلى التقاط مضمون رسالة ما من نص من النصوص المقروءة، وكالآتي:

إنّ المُتتبع لمفهوم النص عند محمد بازي يجد لهُ تعريفات متعددة، منها: إنّ النص "بُنية لُغوية مُتسقة ذات صناعة ونسج، موجهة إلى مُتلقٍ، وراءها مُنتج لهُ مقاصد مُعينة، وهي قابلة للفهم والتأويل بأشكال مُتباينة، وفي مُقتضيات أحوال مُختلفة"[1]،ذاهبا في موضع آخر إلى أنّه "كونٌ لغويٌ مُتقابلٌ ومتسق ذو صناعة ونسج، وراءهُ مُنتج لهُ مقاصد مُعيّنة وموجه إلى مُتلقٍ، وهو قابل للفهم والتأويل بأشكال مُتشابهة أو مُتباينة، وفي مُقتضيات أحوال مُختلفة"[2].

(١) صناعة الخطاب، الأنساق العميقة للتأويلية العربية ، محمد بازي، كنوز المعرفة للنشر والتوزيع ، عمان ، الاردن ، ط١، ٢٠١٥م، ص ٥٤

(٢) التأويلية العربية نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات ، د. محمد بازي ، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠١٠، ص ٣٥٥.

أما النص في تصوّر تأويلية التقابل التي يتبناها بازي فهو: "مجموع الوحدات المعنوية الحاضرة والممثلة لغويًا عبر تقابل المكونات والعناصر، بأي علاقة أو أي تقابل، وتبعًا لهذا، أو من زاوية نظر تقابلية؛ فهو ليس تامًا إلّا بحضورِ قوة تلقٍ افتراضية وتأويلية بانية للمعنى"(١)، أو هو : "كون لغوي متقابل في بنياته وتأويلاتها"(٢) .

وتبعا لما اختصرناه من حديث نظري طويل عن تصور بازي لنظرية النص ، ومفهومه الذي عالجه في أكثر من موضع من كتبه(٣)؛ فإن مفهوم النص عند بازي يحيل على كل ملفوظ مدون ، أو مسموع تستدعي ضروراته وأهميته تدوينه والاعتناء به بهدف الحث على فهمه وتأويله، ولعلّ هذه التحديدات الموجزة لمفهوم النص عند بازي من شأنها أنْ تمنحه فضاء أوسع مما يحيطه به نسيجه اللغوي؛ لتصبح مسألة استحضار ما يقع خارجه من علاقات لن يكتمل إلّا بها ، ضرورة من ضرورات إدراكه بشكل سليم، فإذا كانت كلمات النص وجمله وتراكيبه هي مكوّنه الأول الهادف إلى توجيه معناه، فإنّ استحضار مكوّنات أخرى تقابل نسيجه اللغوي كالقراءة الواعية ، والفهم الثاقب المحيط بتعالقات النص مع نفسه ومع النصوص الأخرى ، سيكون بمثابة التتويج الذي يكتمل به المعنى، وهو ما ينبئ عن الدور الكبير الذي يضطلع به القارئ الحصيف الذي راهن عليه محمد بازي ، متماشيا مع دعاة نظرية التلقي والتأويل في إمكانية الوصول إلى قراءة بليغة يتولاها قارئ حصيف.

ويتبلور مفهوم النص عند بازي حول كونه عالما من متقابلات قد تكون ظاهرة أو خفيّة، وهذه المتقابلات إمّا أنْ تكون نصّيّة أو مبنيّة عبر فعل التأويل المتربص بها؛ فإنّ مفهوم النص القرآني يتمحور حول كونه أعظم نص عرفه الإنسان، وهو أكثر النصوص شهرة وتداولًا في الثقافة الإسلامية والكونية عمومًا؛ لأنّه كتاب الله المعجز الذي يتلوهُ

(١) البُنى الاستعارية نَحو بَلاغة موسَّعة، د. محمد بازي ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، و منشورات ضفاف ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١٧ ، ص ١٤٩ .

(٢) نظرية التأويل التقابلي، مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، منشورات الاختلاف، الجزائر، و منشورات ضفاف، بيروت دار الأمان، الرباط، ط١، ٢٠١٣م، ص٢٢١.

(٣) للاستزادة بذلك ينظر مثلا: الفصل السادس الموسوم: (استعارة المفاهيم والنظريات، مفهوم النص تمثيلا) من كتابه البنى الاستعارية، مصدر سابق، ص ١٢٩ وما بعدها.

المؤمن كل حين ، وينتفع بهِ مثلما ينتفع بالشمسِ والهواء والنور [١] . وهو كتاب لهُ بنيات مُتفاوتة من حيث درجة وضوحها، وهذهِ البنيات لا تُدرك تأويلًا وفهمًا بالقدر نفسه من الجهد، ورغم إنّ النص القرآني جاء على أساليب العرب في القول، فإنّ تباين مستوياتهِ الحاملة للمعنى يسمحُ بحصول أفهام مُتعددة لدى فئات المُتلقين الذين تختلف درجات وعيهم بطرائقٍ تشكل الخطابات[٢].

وبالعودة إلى مفهوم التأويل–بوصفه مصطلحا سابقا لمصطلح التقابل في صياغة بازي الاصطلاحية له– سنجدُ جذورهُ ممتدة في التراث اليوناني عند أفلاطون وأرسطو خاصة، كما كان معروفًا في التراث العربي، فقد ارتبط هذا المفهوم بشرحِ الكُتب المقدسة: التوراة، والإنجيل، والقرآن، وتأويل معانيها وترجمة دلالاتها المتوارية، وقد ازدهر التأويل بشكل كبير في الثقافة العربية الإسلامية، ويظهر ذلك جليًا في تفسير القرآن والحديث النبوي، وفي قراءة بعض النصوص الأدبية، أمّا في الثقافة الغربية فقد ارتبط هذا المفهوم باللسانيات والفيلولوجيا، وبمدارس النقد الأدبي[٣].

ويظهر اهتمام محمد بازي بنظرية التأويل –جليًا– في كتبه الثلاث: (التأويلية العربية نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات)، وكتاب (تقابلات النص وبلاغة الخطاب نحو تأويل تقابلي)، وكتاب (نظرية التأويل التقابلي، مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب)،إذ يرى أنّ التأويل حركة لولبية من حيث تكرار الأفعال، وخطية من حيث اختراقها للزمن، وتحوّلها في كل مرة نحو نقطة جديدة، وفي أحيان أُخر تتم العودة إلى الماضي القريب أو البعيد بهدف لملمة شتاتها، كالإفادة مما قدمهُ الغربيون في هذا المجال، مع رسوخ

(١) ينظر، العنوان في الثقافة العربية، التشكيل ومسارات التأويل، محمد بازي، الدار العربية للعلوم ، بيروت، (د. ط) ٢٠١١م ، ص ٢٧.

(٢) ينظر، صناعة الخطاب، الأنساق العميقة للتأويلية العربية، د. محمد بازي ، ص ١١٣

(٣) ينظر، نظريات النقد الأدبي والبلاغة في مرحلة ما بعد الحداثة، د. جميل حمداوي، دار النابغة، طنطا، مصر ط١، ٢٠١٦م، ص ٦٨– ٧٠ . وينظر أيضا، أصول التأويلية، جورج غوسدروف، ترجمة: فتحي إنقزو، تقديم: محمد أبو هاشم محجوب ، مؤمنون بلا حدود للدراسات والابحاث ، المغرب، الرباط ، ط١ ، ٢٠١٨ م ، ص ٧٢ وما بعدها.

الإيمان بخصوصيات كل ثقافة أصيلة لكل أمة من الأمم داخل مجالها الحيوي الخاص[١] .

أما تصور محمد بازي للتأويل فيدور حول كونه " كلّ اشتغال بالفهم يروم بلوغ المعنى الأصل والمراد والمقبول الذي يعتقد صوابه استنادا إلى آليات ومسالك تمدّه بها بلاغة التأويل"[٢]، وتأسيسا على ما سبق فإنّ فهم النص القرآني على وفق مفهوم التأويل المتبَنى سيُحتم على المؤوِّل "حركة ذهنية ارتدادية وامتدادية في الوقت ذاتِهِ؛ فهي ارتداد نحو مرجع ما، أو أصل ثابت معروف بُني عليهِ اللاحق، وحركة امتدادية نحو غاية أو مقصد؛ بناءً على وسائط أو مؤشرات مُعيّنة"[٣]، ليتجاوز بازي –بذلك– المفهوم السائد للتأويل والقائم على افتراض وجود نوع من العلاقة بين الذات والموضوع[٤]، وبالمقابل فالرجل لا يتردد عن الاستئناس بما قدمته نظريات التلقي والتأويل في نسختها الأوربية، وبما يزخر به التراث العربي الإسلامي من معارف جمة يمكن استثمارها في تلقي النصوص، ولا سيما أنّ بازي يصرّح بالتقاطه إشارة تراثية وردت عرضا في برهان الزركشي(ت ٧٩٤هـ)، مفادها: " اعلم أنّ في تقابل المعاني بابا عظيما يحتاج إلى فضل تأمل"[٥] ليطورها فاتحا بابا من أبواب التأويل القائم على التقابل بين الأشياء[٦].

أما (التقابل) فيحيل مدلوله اللغوي على المواجهة والمعارضة والضم ، وكلها معان تفيد المشاركة بين طرفين[٧]، وله مدلول اصطلاحي مرتبط بمباحث علم البديع في البلاغة العربية التي تعاملت معه على أنّه حلية تزينية تكسي الكلام الموافق لمقتضى الحال، أو أنّه

(١) التأويلية العربية، مصدر سابق، ص ١٥.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٤٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٤.
(٤) ينظر مثلا، أصول التأويلية ، جورج غوسدروف، مصدر سابق، ص ٤٤٩.
(٥) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تح: أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث، القاهرة (د.ت) (د. ط)، ٢٠٠٦م، ص٩١١.
(٦) ينظر، تقابلات النص وبلاغة الخطاب نحو تأويل تقابلي ، محمد بازي ، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠١٠م ، ص١٥
(٧) ينظر، المعجم الوسيط، ابراهيم مصطفى وآخرون، دار الدعوة، استانبول، (د. ط) ١٩٨٩م، ص٧١٢– ٧١٣.

فن له إسهام في صناعة المعنى وتحقق الدلالة[١]، وللتقابل تحديدات بلاغية وتعريفات كثيرة تبعثرت في كتب البلاغة القديمة والحديثة، وما يعنينا من هذه التحديدات تعريف الزركشي الذي يعوّل عليه محمد بازي كثيرا، ونصّه أنّ التقابل، أو المقابلة : " هي ذكر الشيء مع ما يوازيه في بعض صفاته ويخالفه في بعضها"[٢]، مفرّقا بين التقابل والطباق بأنّ الثاني لا يكون إلّا بين ضدين، أمّا الأول فيكون بالأضداد وغيرها؛ مما يفضي إلى اتساع مفهوم التقابل الذي يخرج في نصوص القرآن عن المعاني المتضادة إلى المعاني المتخالفة والمتناظرة والمتماثلة[٣]؛ وعليه فنصوص القرآن تمثل " نكتة الحكمة العلمية، من الكائنات والزمانيات والوسائط الروحانيات والأوائل الإلهيات، حيث اتحدت من حيث تعددت، واتصلت من حيث انفصلت"[٤] ترد كلها على المقابلة التي لا تخرج في أسلوب القرآن عن ثلاثة أنواع: نظيري، ونقيضي وخلافي[٥] .

وعلى ضوء المنظور المتقدم يحاول بازي فتح آفاق الرؤية التقابلية في النصوص الدينية والإبداعية انطلاقا من مبدأ ربط التأويل بالتقابل الذي ما هو إلا "محاذاة المعاني بعضها ببعض والتقريب بينها في الحيز الذهني والتأويلي، عبر مواجهتها بعضها ببعض (وجهًا لوجه) لإحداث تجاوب ما، أو تفاعل معرفي، أو دلالي وتأويلي"[٦]

ولكي يكتسب هذا المصطلح (التأويل التقابلي) شرعيته ، فقد راح بازي يوسع من أمثلته وشواهده التي يحصرها نمطين كبيرين يضم كلّ منهما أصنافا متعددة، وهذان النمطان يتمثلان بتقابلات صغرى وأخرى كبرى، وقد اشتملت الصغرى منهما على التقابل النقيضي، والنظيري، والإثبات والنفي، والتشابه، والفاعل والمفعول، وتقابل

(١) ينظر، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، مكتبة لبنان، ناشرون، (د. ط) ٢٠٠٧م، ص ٦٣٥ وما بعدها.
(٢) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، مصدر سابق، ص ٩٠٨.
(٣) ينظر، المصدر السابق، ص ٩٠٩-٩١٠ .
(٤) نفسه، ص ٩٠٨
(٥) ينظر نفسه، ص ٩٠٨ وما بعدها.
(٦) التأويلية العربية نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات ، مصدر سابق، ص ٢٢٢.

حال الذوات، وسوى ذلك من أصناف أخرى.أمّا التقابلات الكبرى فقد اشتملت على تقابل النص وسياقه، وتقابل النظائر النصيّة وتقابل النسق التواصلي، والتقابلات النووية والاستتباعيّة ، وتقابل النص والعنوان وغيرها من التقابلات الأخرى[١].

وفي ظل فهمه الخاص للتأويل يسعى بازي إلى اعتماد نظرية (التأويل التقابلي) بوصفه أنموذجًا تساندياً تتكامل فيهِ الدوائر النصية مع الدوائر السياقية، إذ يحاول –كما يذهب أحد الدارسين– الإفادة من هذا المفهوم المستعار من فكرة الدائرة التأويلية للفيلسوف الألماني المثالي(شلاير ماخر، ت ١٨٣٤م) [٢]، أو الإفادة من فكرة الأزواج المتقابلة عند الفيلسوف الإيطالي أمبرتو إيكو (ت ٢٠١٦م) –كما يصرح بازي نفسه[٣]– بهدف تطبيقهُ على نماذجَ مختلفةٍ من النصوص و الخطابات على حدٍّ سواء، وانطلاقا من مبدأ قيام التقابلية في بعدها التأويلي على رؤية (الكون المتقابل) حيث الماديات والمعنويات، والكائن والممكن، والوجود والعدم، إلخ ؛ ليجعل من ذلك آلية أو استراتيجية قرائية يمكنهُ عبرها انتاج المعنى، كما يمكن الاشتغال على وفقِ هذهِ الاستراتيجية لفهمِ النصوص الدينية والشعرية وتقديمها للمتلقي، وهذهِ الآلية " تُمثل اختبارا إجرائيا أُسّهُ محاذاة المعاني بعضها ببعض، والتقريب بينها في الحيزِ الذهني والتأويلي عبر مواجهتها وجهًا لوجه لإحداث تجاوب ما، أو تفاعل معرفي أو دلالي وتأويلي"[٤].

(١) للاستزادة بذلك ينظر، المصدر نفسه، ٢٤٣ وما بعدها .

(٢) سبقت إلى القول بذلك الأستاذة سليمة جلال في بحثها: نظرية التأويل التقابلي، من التأصيل إلى التجريب، مجلة فتوحات، ع ٢، جوان ٢٠١٥، ص ٢٣٧،وتقوم فكرة الدائرة التأويلية على فهم الكل يكون انطلاقا من الجزء، وفهم الجزء يكون بالانطلاق من الكل، لأن الفهم ما هو إلا عملية إحالية تقوم على الاختلاف، ففهم كلمة ما في جملة ما يتمّ من خلال مقارنة الكلمة بأخرى تختلف أو لا تختلف معها عن طريق استدعائها على المحور الاستبدالي / العمودي على شكل معان أو صور تميزها عن سواها من كلمات يضمها السياق النصي أو عن طريق مستوى المحور التركيبي / الأفقي، ينظر، الهيرمينوطيقا والفلسفة، نحو مشروع عقلي تأويلي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٨م، ص ١٨٢

(٣) تقابلات النص وبلاغة الخطاب، محمد بازي، ص٩٢.

(٤) المصدر نفسه ، ص٩.

وتُفيد هذهِ الاستراتيجية في التقريبِ بين العناصر والمستويات ذهنيًا بأي شكل من الأشكال، وذلك عن طريق إحداث تواجه بين بنيتين، أو وصفين، أو موقفين، أو غير ذلك، لتنهض -بعد ذلك- على (الفهم الذي يقوم على التساند بين الآليات التي تنبني عليها النصوص والخطابات من جهةٍ، وعلى الجهدِ الذهني المستقصي للمعاني والعلاقات الممكنة بين العناصر النصية والمستويات السياقية)[١].

وفي ما وراء هذا الفهم –كما يبدو- ثمة علاقة عضوية بينه، ومبدأ الانفتاحية؛ فمحمد بازي لا يحبس الفهم في المستويات النصّية وحدها، بل يسمحُ باستدعاء كل ما من شأنهِ تيسيره، أو تطعيمهُ أو إغناؤه، بمعنى أنّ هذا المفهوم سيُتيح المجال للمؤولَ كي يقف على التعالقات النصّية الممكنة، فيما يتعلق بالمعاني النصّية -موضوع التأويل- وما شابهُا في نصوصٍ أخر[٢].

وتجدر الإشارة إلى أنّ مفهوم التأويل التقابلي ينبني في صورتهِ البسيطة على رصد التقابلات داخل بنية اللغة انطلاقا من مبدأ أنّ نظام اللغة قائم –بالضرورة-على التقابل، في حين يحاول الأنموذج التقابلي في فهمه وتأويليه لهذا النظام أنْ " يبيّن كيف يعكس النص المصغر العالم المكبّر، وأنْ يرصد الخطوط ، والمعابر التي تم تحوير العالم المكبّر بموجبها إلى عالم مصغر، قائم على التمثّل وعلى الأفعال والأقوال والأحوال، ثم إعادة عكسها مرآويّا لتشكيل صورة العالم من منظور المنتج"[٣].

وقد يكشف النص السابق عن الأساس النظري الذي اعتمده بازي في قرن النص (العالم المصغر) بالكون الشاسع وما أودعه الله به من أسرار وخفايا، فالنص بأطيافه وفضاءاته مجرد انعكاس للكون (العالم المكبّر) باتّساعه وشسوعه، وإنّ هذا الانعكاس يتمرأى عبر آلية التقابل في النصوص والخطابات، وهو ما حاول بازي أنْ يَنظّرَ له في مجموعة

(١) نفسه، والصفحة نفسها.
(٢) ينظر، نظرية التأويل التقابلي، من التأصيل إلى التجريب، سليمة جلال، مصدر سابق، ص ٢٣٨.
(٣) نظرية التأويل التقابلي، مُقَدِّماتٌ لِمَعْرِفَة بَديلَة بالنَّصِّ والخِطاب، محمد بازي، منشورات ضفاف، بيروت، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ودار الأمان ، الرباط ، ٢٠١٣م، ص ١٧.

متتابعة من بحوثه ودراساته مؤصلا لمفهوم التقابل لا باعتباره مبحثا بلاغيا فحسب، وإنّما باعتباره استراتيجية تقرأ النصوص المتنوعة بهدف تأويلها تأويلا تقابليًّا قادرا على أنْ يجمع التصورات والأفكار المنتظمة في إطار معرفي وفلسفي ومنهاجي ليكون موضوعها تأويل النصوص والخطابات المختلفة، ومظاهر الكون البليغ والمتنوّع اعتمادا على استراتيجية التقابل(١).

وعليه، سنجد محمد بازي مازجا بين المقولات النظرية الموجزة ، وتطبيقاتها الشارحة في كتبه المختلفة، وهذه التطبيقات وإنْ اختلفت في مستويات تناولها من نصّ لآخر؛ فهي مشدودة إلى موقف موحّد مؤداه: إنّ التقابل يسكن النصوص والعالم والإنسان الذي ينتج خطاباته " بكيفيّة متقابلة عن طريق عرض الأشياء على ما يقابلها ، أو يماثلها أو يضادها أو يجاورها أو يتممها"(٢).

ولمّا كانت هذه التقابلات خيطا ناظما لمجموع مكوّنات السِور القرآنية، ومنها الفاتحة التي هي عنوان القرآن الكريم كلّه، ومقدمته المختزِلة لمضامينه جميعِها، فضلًا عمّا تحتويه السورة من نظّم معْجز جدير بالكشف عنه وتحرّيه من زوايا مختلفة؛ فإنّ بازي يحاول أنْ يقف عند بعض أسرار هذا النص من منظور تأويلي تقابلي ، سيسعفه عند المحاورة الدلالية لما يشتمل عليه النص المذكور من خصوبة معنوية تتيح له البرهنة على الفروض النظريّة التي انطلق منها.

المبحث الثاني: في الإجراء التأويلي التقابلي لسورة الفاتحة

لما كانت نظرية التأويل التقابلي تنهض على رغبة النفاذ إلى عمق النص بهدف استجلاء ما يكتنفه من تقابلات ظاهرة ومضمرة، وانطلاقا من عدّه –أي النص– شكلا لغويا مُرتَسَما عن كون ، أو وجود ، أو عالم أمثل (أكبر) تتجلى قوانينه في النص (العالم الأصغر)؛ فإنّ الناقد البلاغي محمد بازي سعى إلى تبيان مفاصل التقابل الماثلة في أنموذج بديع هندسه

(١) ينظر، المصدر السابق، ص٤٢٠.
(٢) تقابلات النص وبلاغة الخطاب، مصدر سابق، ص ١٠.

قائله بصورة معجزة هو (نص سورة الفاتحة) الذي قد يسهم في الإجراء التنفيذي لمنطلقات التأويل التقابلي النظرية في إدراك الأبعاد الخفية لتقابلاته الدقيقة التي شكّلته، وكالآتي:

قال تعالى في أمّ الكتاب : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧ ﴾[١].

في قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾.

تنفيذا لفروضاته النظرية –المارّة– في التأويل التقابلي يستخلص محمد بازي من البسملة المتقابلات الممكنة الآتية:

إنّ المتبرِّك –هنا– قارئ النص، والمتبرّك بهِ هو الله، وهُناك تقابل خفيّ أشارت إليهِ البسملة تمثّل عبر التبرك باسم الله مقابل التبرك باسم غيره، كالتبرك بـ(العزى واللات) آلهة الجاهليين المقدّسة، وإنّ حضور اسم الله دليلٌ على صحة فعل التبرّك بهِ، وبطلان التبرك بغيره[٢]. وسيُعين بازي الخزينُ المعجمي للفظة (الله) على إبراز التقابل بين الله – المألوه، فالله أصلهُ الإله، وهو اسم جنس جامع يطلق على كل معبود بحق وباطل، ثم غلب على المعبود بحق، أمّا الله فلا يطلق إلّا على المعبود بحق"[٣]. فضلا عن أن مفردة (أَلِه) دالة بذاتها على التحيُّر، فالله تتحير الأوهام في معرفتهِ، والمُتحيرون هُم خلقه، مُقابل المُتحيَّر فيهِ (الله) وهكذا، فكل توسع في البحث اللغوي سيثري القراءة بدلالاتٍ جديدة لا يلتفت إليها القارئ العادي الذي لا تستهويه إلا المعاني الظاهرة المُشخصة.

ولبرهنة ذلك ينجذب بازي لصفة الرحمن بمقابلة صفة (الرحيم) محاولا مدّ خطوط التواصل بينهما عبر نافذة التكامل والتتميم التي يلتقطها من الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)؛ لأنّ التقابل حاصل بالنصوص المعجزة لا عبر نافذتي التضاد أو التماثل وحدهما، وعليه

(١) سورة الفاتحة، ١ – ٧.
(٢) ينظر، تقابلات النص وبلاغة الخطاب، ص ١٦ .
(٣) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

فإن صفة الرحمن "تتناول جلائل معاني الرحمة وعظائمها، والرحيم تتميم لما لطف منها، والرحمة معناها العطف والحنو، ومنها الرحم لانعطافها على ما فيها"[١]، وضمن حدود البسملة يظفر الرجل بإمكانية إحداث تقابل ثلاثي جديد أسماه (تَتْمِيميًّا) بين أسماء الله الثلاثة (الله، الرحمن ، الرحيم)، ليعزّز معنى الألوهية الحقّة ومعنى الرحمة الكاملة بالعباد المتبرِّكين به؛ محيلا –هذه المرة– على أبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) الذي يقول:" إذا تفكّرت وجدت الفاتحة على إيجازها مُشتملةً على ثمانية مناهج، فقوله: (بسم الله الرحمن الرحيم) نبّأ عن الذات وقوله (الرحمن الرحيم) نبّأ عن صفةٍ من صفاتٍ خاصة، وخاصيتها أنّها تستدعي سائر الصفات من العلمِ والقدرة وغيرها، ثُم تتعلق بالخلق وهم المرحومون تعلقا يؤنسهم بهِ، ويشوقهم إليهِ، ويرغبهم في طاعتهِ"[٢].

ومما يزكي هذه الالتقاطات التقابلية في البسملة إشارة بازي إلى إمكانية إحداث نوع آخر من أنواع التقابل الضمني، فذكر صفة الرحمة سيشيع الفرح بالنفس، ويرغبها في الطاعات، بخلاف الغضب الذي يوحش النفوس ويخيفها، ومن هنا فقد تحرّى التقابلات الممكنة في البسملة محاولا تحديد علاقاتها خارج تصوراتها القديمة التي تحصرها ضمن أطرها الضيقة الموروثة عن القراءات السلفيّة.

وفي قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤﴾ يحاول بازي فهم الأشياء بمقابلاتها مراهنا على المكون المعجمي ذي الإمكانات الهائلة في السورة، وذاهبا إلى أنّ الحمد لله حاصل، وهو "تعليم من الله لعبادهِ كيف يحمدونهُ، مقابل الحمد لغير الله، وهو متروك لأنّهُ كفر وجحود وضلال. الحمد المطلق ثابت مقابل الحمد النسبي: بعض الحمد لا يدخل في تعليم الله خلقه وما يريدهُ لهم. ثُم إنّ الحامدين هم

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٧ ، وينظر الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله أبو محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوّض ، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٩٩٨ م، ج١، ص ١١٠ –١١١.

(٢) المصدر نفسه، ص١٧، وينظر أيضا، جواهر القرآن ودررهُ، حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، تحقيق: الدكتور محمد نجران المحمد، دار الهادي، دمشق، ط١، ٢٠٠٦م، ص ٧٢.

المؤمنون والمسلمون مقابل المحمود (الله تعالى). كما أنّ الحمد الدائم ثابت ومستقر، مقابل الحمد المؤقت غير وارد إطلاقًا"[1] .

وبسبب هذه النظرة المتزنة يلفت بازي الانتباه إلى دور المؤوّل المعتمد التقابل رؤية منهجيّة في استحضار طرف الثنائية الغائب عن هذه الآية المباركة، فالحمد هو: ابتداء للكلام يفتحُ باب السؤال عن الخبر: الحمد لمن؟ مقابل الخبر (لله) الذي يبعد تحديده كل التباس، ويؤكد حقيقة واحدة أنّهُ حمد لله، إذ ورد الحمد الذي أرادهُ الله لعبادهِ مرفوعًا بالضمة دلالة على الثبوت والاستقرار، وهو يقابل الحمد (المنصوب أو المجرور) وهو متغير غير وارد. والحمد هو الثناء الكامل مقابل الذم: النقيض الغائب. ثم إنّ الحمد: حمد الله الكامل لنفسهِ مُنذ الأزل يقابلُ حمد الخلق المشوب بالعلل، وقالوا: إنّ الحمد والشكر (نصف الإيمان) مقابل الصبر (النصف الثاني) للإيمان[2].

ويرى بازي أنّ مجمل الخلاصات التي يمكن أنْ يفضي إليها استقصاء التقابلات الموجودة في (الحمد لله) يمكن حصرها بالآتي: إنّ الحمد لله دائمٌ مستمرٌ لا ينقطع ولا يضمحل، وذلك لشمول نعمهِ عمومها (الظاهرة والخفية) خلقه كلّهم، وفي الوقتِ نفسه، فإنّ حمد الله لنفسهِ أزليٌّ لعلمه بعجز المخلوقين من عبادهِ عن أداء الحمد الكامل لهُ، وإنّ حمدهُ الكامل ممتدٌ لا ينتهي؛ لأنّه يستغرق الأزمنة والأمكنة كلها، فالحمد شطر الايمان العملي، وهو أول الصراط المُستقيم[3].

وفي قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

تنزع قراءة بازي لنص الفاتحة -على وفق منظوره التقابلي- إلى الحفاظ على جوهر النص الموحى بخلاف القراءات الأخرى المماثلة التي طوعت الرؤى النقدية الحديثة لمقاربة هذه السورة، فوقعت في فخ " إسقاط خصائص النص الأدبي البشري على النص الموحى، وإلغاء كلّ مميزات النص الموحى حتى باتت خصائص المرسل مصدر النص متطابقة في

(١) تقابلات النص وبلاغة الخطاب، ص ١٨.
(٢) ينظر، تقابلات النص وبلاغة الخطاب، ص ١٩.
(٣) ينظر، نفسه، والصفحة نفسها.

الحالتين!"[1]، ولذا حافظت هذه القراءة على انضباطها عند التوغل في مضامين النص المقروء ، عبر التقيّد بتقاليد التراث التفسيري للقرآن الكريم والتزام حدوده كلما اتسعت لدى صاحبها الرؤية وانفتح المنهج، وهذا ما يجعل من هذه القراءة ليست غريبة أو بعيدة حتى عن قارئها العادي غير المتخصص.

يقول في تحليله للتركيب أعلاه بهدف استقصاء نظامه التقابلي:(الربُّ يقابلهُ ضمنيًا وجود مربوبين، وهو يقابل دلاليًا السيد المُصلح والمدبر والمربي. فالربّ بالتعريف خاص بالله –تعالى– مقابل ربّ الشيء بالإضافة، أي صاحبه، مثل ربّ البيت، مما يصدقُ على المخلوقين. والربّ مقابل المالك: أي مالك العباد وهم مملوكون. والعالمون مقابل غير العالمين، كما إنّ العالمين تُقابل الإنس والجن والملائكة والشياطين. والعالم الظاهر يقابل العالم الخفي، ويقابل أولو العلم (المكلفون) ما لا يعقل إجمالاً)[2].

و هنا نلحظ تفرع المعاني من أيسر اللفظ لإمداد القراءة بإشعاعات تفتح أفق الدلالة دون أنْ تدخل القارئ في الحيرة والتيه، سواء تعلق الأمر بتقابل الترادف أو بالتماثل المعنوي، أو تقابل التضاد والتخالف؛ فالأشياء تتجلى بنظائرها، أو بأضدادها، أو بمُتَمّماتها، ممّا يعني أنّ " ربّ العالمين سيدَهم ومالكَهم ومربيهم؛ فالله هو الخالق المالك والعالَمُ هو المخلوق بتنوعهِ، مُدين لله بإنعامهِ وخلقهِ وتربيته"[3]، وينتهي بازي إلى أنّ التقابلات المشار إليها أفضت إلى معنى شمولي عام يخدم مضمون النص ، ويؤكد تفرّد الله بالربوبية المطلقة وقدرته على تدبيرِ شؤون الخلق ، وإفاضة الرزق والعطايا والنعم على المخلوقين بمختلف ألوانها وأشكالها، ومن كانت كُل أمور الخلق منوطةً بهِ من البداية إلى النهاية فهو المُستحق للعبادة والطاعة والامتثال التام، إذ من علامات ربوبيّتهُ هو ذلك اللطف الصادر من لدنهِ

(١) تعدّ قراءة محمد أركون أنموذجا للقراءة التي تعاملت مع النص القرآني كأي نص أدبي آخر، أو كأي نص ديني آخر طاله التحريف والتحوير!، وللوقوف على أبعاد هذه القراءة ينظر مثلا، القرآن الكريم والقراءة الحداثية، دراسة تحليلية نقدية لإشكالية النص عند محمد أركون د. الحسن العباقي، دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط١، ٢٠٠٩م، ص ٢٥٠ وما بعدها.

(٢) تقابلات النص وبلاغة الخطاب، ص ٢٠

(٣) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

–سبحانهُ وتعالى– بإرسال الأنبياء إلى الإنسانية لهدايتهم إلى الصراط المستقيم[١].

وفي قوله ﴿ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴾

نوّهنا في البسملة إلى وجود تقابل تتميمي بين صفتي "الرحمن والرحيم " يتمثل بكون دقائق معاني الرحمة ولطائفها في صفة (الرحيم) هي تكميل لجلائل معاني الرحمة وعظائمها في (الرحمن)،الأمر الذي يدعو بازي لمقابلة الصفتين المذكورتين بعبارة (ربّ العالمين) الحاملة معاني العظمة والجلال، وفي ذلك ترهيب للعباد، بمعاني الرحمة في "الرحمن الرحيم" مما نجم عنه تقابل بين: "الرهبة من الله و الرغبة إليهِ، وذلك أعون على طاعتهِ"[٢].

وفي قولهِ: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾

ينطلق بازي من مسلّمة أنّ كل بنية لغوية يكمن وراءها ترسيم تقابلي ، قد يكون ملحوظا بوضوح أو قد يكون خفيا غير واضح، وبالاعتماد على هذه المسلّمة يجد في تركيب "مالك يوم الدين "إمكانات تقابلية يحددها بالآتي: ملك: الله مقابل المملوكين: العباد. و (مالك) على صيغة اسم الفاعل هي قراءة صحيحة عن النبي ﷺ مقابل مَلك، وهي كذا قراءة صحيحة. وملك مقابل يوم الدين، الزمان (يوم) يقابل –ضمنا– المكان، وفضاء الحساب ومكانه مملوكان لله وحده سبحانهُ وتعالى[٣].

وعلى هذا المنوال يمكن توسيع دائرة التقابل، إذ يذهب بازي إلى أنّ: "اليوم على الحقيقة: من طلوع الشمس إلى غروبها مُقابل اليوم على الاتساع ما بين بداية القيامة إلى حين استقرار أهل الدارين فيها. وتسمحُ لنا كلمة (الدين) بتوليد معان إضافية، فيوم الدين يحتملُ –ضمنيا– وجود المُدين: المحاسِب: الله –تعالى– مُقابل المدانين: المحاسبين وهم الخلق. ومن ثمّ فالامتلاك الكلّي ليوم الدين حاصل لله تعالى، ويقابلهُ كون الامتلاك الجزئي والكلي مُنتفيين في حقهِ"[٤]. ويُشير بازي إلى أنّ الممتلك امتلاكًا تامًا ليوم الدين أحقّ بالحمد.

(١) ينظر، تقابلات النص وبلاغة الخطاب، ص ٢٠
(٢) المصدر نفسه، ص٢١
(٣) ينظر، نفسه، والصفحة نفسها
(٤) المصدر نفسه.

أمّا المعاني الفرعية التي يمكنُ توليدها وإتمامها من ذلك، فهي: (مالِك) أبلغ في مدح الخالق مُقابل (مَلِك) أبلغ في مدح المخلوقين. يُزاد على ذلك أنّ المالك دلاليًا ملكٌ في مُقابل أنّ ليس كلُّ مالك ملكًا، ويستتبع ذلك على مُستوى الشرح والتوضيح وأنّ سائر الأيام عمل ولا حساب مُقابل يوم الدين حيث الحساب بعد انقطاع العمل بالموت، وحيث كمال الملك يوم الدين لله، ويقابلهُ سلبا انقطاع أملاك الخلائق، ثم هو يومٌ للجزاء (أهل الجنة) مُقابل العقاب (أهل النار)، وبناءً على ما جاء بهِ الناس من أعمال الخير مُقابل ما جاؤوا بهِ من أعمال الشر، ويستحضر بازي بشكل تقابلي ما يرى أنّ له علاقة بهذا اليوم لتكتمل الصورة، كعرض مشاهد القيامة، اليوم الذي ينتظر فيه الفقراء والأغنياء على السواء جزاء ما عملوا، والأحرار والعبيد، الذكور والإناث، المؤمنون والكفار، إلخ؛ لأنّ ما يسمح بتقريب المعاني من قارئ نص الفاتحة هو عرض المعاني المفهومة عرضا تقابليا، ومن ذلك نقص ملْك الخلائق يقابلهُ كمال الملك والعدل لله وحده[1]

وعندما يوظّف محمد بازي هذه الآليّة التي لا تكف عن دورانها حول المعاني الغزيرة التي يجود بها يسير اللفظ ؛ فهو يكشف في حال من الأحوال عن موقفه العقدي الراسخ بالوحي في النص القرآني، وعن دور هذا الموقف في توجيه دلالة النص بهدف الإحاطة بجميع الأبعاد التقابلية فيه عن طريق استحقاق الحمد المطلق لله سبحانهُ وتعالى، وهذا شعور منشؤهُ القلوب العامرة بالإيمان على مختلف الأزمنة والأمكنة.

في قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

لقد بان لنا مما تقدم أنّ بازي يحاول أنْ يحيط مفهومه للتأويل التقابلي ببعد إجرائي ، يؤكد صحة هذا المفهوم الذي لخصنا ملامحه بإيجاز شديد في المبحث الأول، وهو حينما يتناول قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ يحاول الإمساك بالتقابلات الظاهرة التي يحدّدها بتقابل نحوي ظاهر، هو أصلٌ مُقابل بناء نحوي مُحوَّلٍ لدواعٍ بلاغية عن الترتيب الأصلي، إذ أفاد المفعول المُقدم (إياك) حصر العبادة في الله –وحدهُ– مُقابل الفاعل المؤخّر

(١) ينظر، ، تقابلات النص وبلاغة الخطاب، ص ٢٢

(الذي أصله ضمير مُستتر تقديرهُ نحن). وجرت مقابلة العبادة الدالة على الخضوع والالتحام الإيماني الكبير بالاستعانة القائمة على جلب المنافع، ودفع المضار، أمّا الانتقال الأسلوبي من الغيبة إلى الخطاب فسيخلق جوًا نشطًا عند السامع، وبناءً تقابليًّا بديعيًّا في تلوين الضمائر، وهو ما اصطلح عليهِ المتقدمون بأسلوب الالتفات، لذا يحقق الانتقال من ضمير إلى آخر، ونقل الكلام من أسلوب إلى آخر تلوينا بلاغيا، وفي ذلك إطراء وترغيب لسماع المتلقي. خصوصا، أنّ السورة يُرددها المتعبدون في أثناء الصلوات كثيرا، وتنطوي بنية الزمن على الحاضر والمُستقبل في الفعلين(نعبدُ ونستعين) ؛ ليفصحُ الفعلان عن دلالة الامتداد من الزمن الحاضر نحو المستقبل اللامتناهي وغير المُحدد، ومهما بلغ العابدون من طول العمر فهم لن يعيشوا كلّ هذا الزمن اللا محدود الذي يدلُ عليهِ الفعلان المذكوران، مُقابل ذلك فالإقرار بالحمدِ المُطلق لله وحدهُ، وحصر العبادة بهِ وطلب الاستعانة منهُ دون سواه يشمل أعمار كل الداعين بهذهِ السورة المباركة، ومرتليها، في أي زمن عاشوا وفي أي مكان كانوا [1].

فيَكمنُ الأساس في العبادة –إذن– في قوة الانصهار في بوتقة التذلل لله الواحد والخضوع لهُ، وفي ذلك إيذانٌ بالضعف والاستسلام للخالق، ثُم يكتمل إظهار الافتقار إليه عبر مُقابل مُماثل وهو الاستعانة بالله دون سواه؛ وكلاهما طريق مُعبد مُذلل للسالكين، وتتفرع عنهما معانٍ خفية، فالعبادة تقوم على "تحلية النفس والإخلاص في أداء الشعائر، مُقابل الاستعانة، وهي تزكية النفس من الشرك وطلب الحول والقوة من الله"[2]، فلا بدّ – والحال كذا– من الإشارة إلى تقديم العبادة، وهي السبيل والوسيلة مُقابل تأخير الاستعانة، وهي الغايات، وكأنّ في ذلك إقرار بضرورة إنجاز العمل وتقديم الطاعة ، وإظهار التذلل قبل طلب المعونة تأدبا في التعامل مع الخالق العظيم.

ويحاول بازي أنْ يستخلص من التقابلات المذكورة –آنفًا– المعاني والدلالات وإظهارها بأجلى صورة، فبعد حمد الله "حمدا كاملا مُستغرقا تاما، لا نقص فيهِ ولا انقطاع

(١) ينظر، المصدر نفسه، ص ٢٥– ٢٧ .
(٢) المصدر نفسه، ص٢٤.

لاستحقاقهِ العبودية؛ لأنّهُ الخالق والرب والرحمن والرحيم، يقر المؤمن – كما علّمهُ الله أنْ يتضرع إليهِ ويدعوهُ – بأنّ العبادة لله وحدهُ، والاستعانة عليها وعلى غيرها من أمور الدنيا مطلوبة منهُ وحدهُ [1]. وقد أفاد دور الحصر وتقديم المخصوص بالعبادة والاستعانة مبدأ قصر التذلل والخضوع على الله وحدهُ دون غيره من المخلوقين والمخلوقاتِ، وعليه، فإنّ آية ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين﴾ اختزالٌ لجانبين رئيسين من عقيدة المؤمن ، هما (التحلية والتزكية) بمعنى تحلية النفس بالعبادة والإخلاص لله وحده، و "تزكيتها بنفي ما لا ينبغي وقد تضمنهما التقابل الخفي المبني انطلاقًا من الصراط المُستقيم، وهي –دون جدال– طريق تحلية النفس بما ينبغي وتزكيتها مما لا ينبغي"[2].

في قوله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِم غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

لّما كان التأويل نشاطا دقيق المسلك فإنّ أول ما يحتاجه سلامة الذوق، ومعرفة بأسرار اللغة؛ فإن التأويل الذي يعتمد اللغة أساسا ومرتكزا له، هو تأويل "سيجمع في آلياته المنطق المعياري والتصنيف الوصفي وما لا تدركه الصفة من توقعات النفس فيما وراء الكلام"[3]، ولعلّ محمد بازي –ومن طريق صحة تخريجاته اللغوية التي تردّ الأشياء إلى أصولها لغةً وحسًّا وبحثًا عن أفضل أداء تطابق فيه المعاني مقتضيات الأحوال كان يلتزم بهذا النمط التأويلي المنطلق من اللغة والعائد إليها في الآن نفسه، فهو –مثلا– يحاول اختزال الإمكانيات التقابلية التي تُسهم في الفهم العميق لدى المُتلقي انطلاقًا من الآية السابقة، فالأمر الحقيقي (اهدنا) مقابل الأمر الاستلزامي، حيث إنّ الأمر –هُنا– خرج عن مُقتضاه الأصلي الذي هو طلب الفعل على وجه الوجوب والاستلزام من مقام أعلى إلى مقام أدنى ليتخذ معنى الدعاء والطلب والسؤال؛ لأنّهُ صادر من مقام أدنى (العبد) إلى مقام لا يعلوه

(١) ينظر، تقابلات النص وبلاغة الخطاب ،٢٤.
(٢) المصدر نفسه ،الصفحة نفسها .
(٣) المنهج البياني في تأويل النص، د. محمد بن مريسي الحارثي، دار الانتشار العربي، بيروت، ط١، ٢٠١٥م ص ٢١٥ .

مقام (الله)[1]، وعليه فإنّ هناك الباحث عن الهداية وطالبها مُقابل القادر عليها ، والمأمولة فيهِ بشكل مؤكد، فضلا عن وجود التقابل في فاعلية الهداية (الله) مع المهدي (العبد) أولا، والمهتدى إليهِ ثانيا، وهو الصراط المُستقيم[2]. وبالنتيجة فإنّ السورة كلّها محكومة بتقابل نووي مركزي يكمنُ في مجمع الثناء والشكر مقابل مجمع المطالب والحاجات.[3]

أما معنى الهداية –هنا–فهو الإرشاد والتوجيه والميل إلى الصراط المُستقيم، وفي ذلك تقابل إدراك الداعي لأمرينِ مُتقابلين، هما: "الصراط المُستقيم مُقابل الصراط غير المستقيم، وأصل الصراط السّراط، من الاستراط = الابتلاع، وكأنّ الطريق تسترط من يسلكها، وهو تقابل آخر بلاغي بين الصراط على الحقيقة (غير وارد) والصراط مجازا، و (هو المراد) ويرصدُ بازي ثمة مُفارقة بين معنى (الصراط المُستقيم)، (والصراط المعوج أو الملتوي)، أو (صراط المغضوب عليهم) (والضالين)، وعبر ذلك يُمكن ملاحظة التقابل التماثلي بين (الصراط المُستقيم)، و(صراط المُنعم عليهم) على أساس أنّ (الصراط) الثانية بدلٌ من الأولى ضمن المستوى النحوي. وكذا تقابل المُنعِم (الله) مع المُنعَم عليهم (العباد)، ومُقابلة الغاضب (الله) مع المغضوب عليهم (العباد). ومقابلة صفتي (المغضوب عليهم) (والمنعَم عليهم). (والمغضوب عليهم) (والضالون). ومقابلة (الضال) (والمُضل). وكل هذه المقابلات هي آفاق ورؤى تحليلية وتأويلية تسهم في محاولة الفصل بين المُستويات الدلالية ومشغّلاتها المحركة.

(١) تقابلات النص وبلاغة الخطاب، ص ٢٥.

(٢) ينظر، نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) ينظر، المصدر نفسه، والصفحة نفسها، وما يقصده بازي بالتقابل النووي هو التقابل المركزي في النص، بين موضوعين أو حالتين أو زمنين او قيمتين أو وضعين. ويتبيّنُهُ المؤوّل من خلال اطلاعهِ الأولي الاستقصائي على النص، وهو غير كاف لبناء الدلالة الكلية، لكنهُ قد يُعتمد كقاعدة لفهم النص أو تفهيمه –خاصة في المجال التعليمي– ليتمُ استكمال التقابلات الصغرى. وقد نعدلهُ كلما تعمقنا في التأويل، وعليهِ تتأسس بقية التقابلات التفصيلية والجزئية... ينظر التأويلية العربية، مصدر سابق، ص ٣٥١.

وهكذا يتبيّن لنا أنّ وجهة البحث عند هذا الناقد البلاغي لا تكف عن التوقف لإجراء ضوابط التأويل التي تبناها في كتابه المشار إليه ، دون أنْ يستتبع ذلك ربط لمجريات التأويل بأخلاقياته المعهودة في الثقافة الإسلامية المرتبطة بعلوم القرآن ومعارفه، وهذا ما سنحاول الوقوف عنده في السطور القادمة، فهو عندما يتأمل الآية المارة يجدها حافلة بإمكانيات تقابليّة عديدة ،منها مثلا: "النعمةُ على الأولياء مُقابل النقمة على الكفار، وهو كذلك تقابل ترغيب للمؤمنين وترهيب للمغضوبِ عليهم، أي (اليهود) والضالين أي (النصارى)"[١].

إنّ التقابل لا يقتصر على الأسماء، بل يشمل الضمائر، فمثلًا الضمير المُنفصل (إياك) الدال على المخاطب يُقابل ضمير المُتكلم الموجود في قوله (نعبدُ)، فضلا عن تقابل صيغة المخاطَب المفرد بإزاء جمع المُتكلمين. ولعلّ ما يراد من ذلك أنّ من يرفعون أيديهم بالدعاء كثيرون في الأزمنة والأمكنة المختلفة؛ غير أنّ من يُعين عند سؤله، هو واحدٌ في الأزمنة والأمكنة كلِّها، وهذا دليلٌ واضحٌ جليٌّ على عظمة الله ، وربوبيتهُ وقدرتهُ على إجابة السائلين أينما كانوا، وحيثُما نزلوا بغض النظر عن أزمنتهم التي يحيون فيها، وإنّ مطالبهم –قريبة المنال أو بعيدته، كبيرته أو صغيرته– مجابةٌ بإذنه. وهو معنى يدعو إلى فتح نافذة التأمل والتفكر العميق في قدرة الخالق العظيم[٢].

وفي سياق رصده لتجليات الثيمة الرئيسة التي يعول عليها في فهمه للآلية التي يتبلور فيها التقابل داخل البنية النصية وخارجها عن طريق الإحالة على ما يرتبط به التقابل في الخارج ؛ يتفطن محمد بازي إلى الكيفية التي تتناسل فيها المتقابلات في قوله تعالى: "صِرَاطَ الَّذِين أَنْعَمْتَ عليهم غير الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ"، فالخطاب في (أنعمت) يقابله الغياب (عليهم)، والمخاطَب (بفتح الطاء) مُنعِم (الله جل جلاله)، والمُتكلَّم (بفتح الكاف)عنهم (مُنعَم عليهم أو مغضوب عليهم) وهم العباد"[٣]، وفي هذا تلميحٌ إلى حتمية حصول تحقق النعمة على المؤمنين بتأكيد التعبير بالفعل (أنعمت) المحيل على حتمية

(١) تقابلات النص، ص٢٥.
(٢) ينظر، المصدر نفسه، ص٢٥-٢٦.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٦ .

التحقيق والحصول، وتحقق حصول الغضب على الكفرة الفجرة. وبهذا ينفتحُ فضاء النص على قصصِ الغابرين واليهود والنصارى وأخبار التاريخ والنبوءات، فيُقدمُ للمؤمن الباحث عن أسرار الإنعام على المنعم عليهم، وعن دواعي الغضب على من غُضب عليهم مفاتيح البحث والسؤال عن قصص الغابرين الأولين؛ وهو ما سيزيدهُ رغبة في الاطلاع على خفايا الرسالات المتقدّمة، وعلى مآلات المؤمنين ونهايات المعاندين.

وبوصف هذا النص نواة القرآن وعنوانه الكاشف عن مضامينه؛ فإن القراءة الكاشفة على ضوء الرؤية التقابليّة ستدلنا على الخيوط المتعددة للدلالة الخفية المتراصة التي قد يبديها ظاهر النص منفصلة عن بعضها؛ فلو عدنا إلى الصراط المُستقيم المُفسَّر (هكذا في النص) والمُفسَّر لهُ (صراط الذين أنعمت عليهم) ، سنجد دلالة الصراط المُستقيم تحيل على الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيهِ، وهو طريق المُنْعَم عليهم، وسيسلكه النبيون والرسل وملائكة الله الصالحين والشهداء؛ وسيُقابل ذلك ما سيسلكه المغضوب عليهم والضالون من طريق أعوج لا نجاة فيه[1] .

وبما أنّ السياق الذي تتحدث عنه السورة يسمح بعرض التقابلات الممكنة والمتفرعة بحكم قابلية هذه المنهجية على توليد دلالي متصاعد، لذا سيجد القارئ أنّ (المُنعَم عليهم) يعرفون الحق، وهم عاملون بهِ بالضرورة، ويقابلهم المغضوب عليهم الذين يعرفون الحق، لكنهم غير عاملين بهِ، وهم اليهود، ويقابل المؤمنين المُنْعَم عليهم. كذلك (الضالون)، وهم النصارى[2]، مما يعني اشتمال التعبير على تقابلَ بين عارفين مختلفين أحدهما عارف عامل وآخر عارف جاحد.

إنّ ما يتيحه التأويل التقابلي من إمكانيات لتقصي أبعاد المعنى المخبوء في النصوص القرآنية والأدبية ، تجعل منه المدخل الأنسب للتعامل مع النصوص على مختلف أجناسها وأنماطها، وذلك استناد على جعل التأويل سعيا دائما لالتقاط مضمون رسالة النصوص

(١) ينظر، تقابلات النص ، ص٢٧.
(٢) ينظر،المصدر نفسه، ص٢٨.

انطلاقا من تحديد دلالتها المعجمية وصولا إلى إعادة صياغة الفهم إلى هذه الدلالة، ومن التعليق حول النصّ إلى استجلاء مراميه ومقاصده، ومن الشرح الأولي لخصائصه وسماته إلى تحديد عناصره وبنيته وغرضه وتأثيراته[1]، وعلى ضوء هذا التعامل كان محمد بازي يدفع بقراءته لهذه السورة مفعّلا المقولات المستمدة من نظريته في التأويل التقابلي، وحينما يصل إلى تعبير (اهدنا) سيقوده التعبير إلى توسيع آفاق الدلالة ما أمكنه ذلك، وانطلاقا من أنّ ما قبل الهداية يقابل ما بعدها، والهادي يقابل المهدي، والمهديون بمقابل المهتدى إليهِ، والضلال بمقابلة الهداية، والهداية المتجزئة تُقابل الهداية الكاملة، وإنّ المعلوم من الهداية قليل عند أكثر الناس مقابل المجهول من الهداية كثير عند أكثر الناس، والهداية مع العمل القليل بمقابل الهداية مع العمل الكثير، وإنّ سؤال الهداية (اهدنا) للهداية مقابل سؤال الهداية للتثبيت، وإنّ الهداية في الحياة الدنيا إلى طرقِ الخير مُقابل الهداية عند الآخرة إلى طريقِ الجنة[2].

وقبل أنْ يعلن بازي إثبات صحة فروضه يذهب إلى أنّ ثمة أمورا عديدة احتوتها سورة الفاتحة تتمثل بإقرار الحمد المطلق له –سبحانه– وطلب العون منه وانحسار العبادة بهِ وله، وهذا يظهر مدى أهمية السورة وقدرتها على اختزال مضمون القرآن، ويبيّن قيمة ما تحملهُ من سماتٍ بلاغية نظمية تساير الزمن، فضلًا عن خصوصيتها الحيوية، ومدى الحظوة التي تشتمل عليها، وعدم الملل من تلاوتها، بالرغم من إعادة ترديدها سبع عشرة مرة في الفرائض كلّ يوم، ولذا اختارها الله –سبحانه وتعالى– لتكون روح الصلاة التي لا تصح الصلاة من دونها مطلقًا، إذ لا يمكن الاستغناء عنها بأيّة حالٍ من الأحوال[3].

وخلاصة ما نصل إليه من قراءة بازي للآية السابقة ، أنّ التأويل الذي يعتمد المقابلة أداة إجرائية هو عملية قادرة على الإنتاج وعلى سبر أغوار المعنى الكامن، وليست مجرد

(١) ينظر، دليل الناقد الادبي، د. ميجان الرويلي، د. سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٠م، ص٤٧.
(٢) ينظر، تقابلات النص، ص٢٨.
(٣) ينظر،المصدر نفسه، ص٢٨.

استجابة أو متعة يمارسها القارئ مع النص بهدف استرضائه، وفي ظل هذا الفهم يلحظ الناقد في قوله تعالى: ﴿ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ تقابلات نحوية وبديعية متعددة وثرية، تفضي إلى بناء معانٍ مُهمة إذ يقول: " إنّ الله أضاف النعمة إليه، مُقابل حذف فاعل الغضب وبنائهِ للمجهول؛ لأنّ النعمة فضل وخير، والغضب انتقام، فأضاف إلى نفسهِ أحسن الأمرين وأفضلهما (النعم)، وخصّ غضبهُ بغيرهِ، فالذين يغضبون لله هم ملائكته وأنبياؤهُ ورسله"[1] ويرى –أيضا– أنّ الوظيفة البلاغية التي يؤدّيها حذف فاعل الغضب في (غير المغضوب عليهم) تكريس معنى إشعار هؤلاء بالاحتقار، وتحقير شأنهم. بخلاف ذكر فاعل النعمة المؤدي لوظيفة إكرام المنعم عليهم وإعلاء شأنِهم[2].

ولكي يسوّغ منطقه في التأويل يراوح بازي في الانطلاق من نقاط معينة داخل النص تسمح له بمحاورته بغية تشكيل قراءته باستحضار ملكاته القرائية، ولذا سيبني من قوله (أنعمت) تقابلًا آخر، هو (النعمة المُطلقة) الخاصة بالمؤمنين بمُقابل مُطلق النعمة الشاملة المؤمنينَ والكفرة، فضلا عن وجود التقابل الواضح بين الهداية والنعمة، والغضب والضلال، فالهدى والسعادة مُترابطان ولايفترقان، والضلال والشقاء مُتلازمان، أمّا الطريق المؤدي إلى الله (الصراط المستقيم) فهو الطريق الواضح والسالك والقريب المتّسعُ لمرور كل من يتبعهُ ويسلكهُ.

نتائج البحث

من الممكن أنْ نوجز أهم نتائج هذه الدراسة بالآتي :

محمد بازي ناقد وبلاغي ترددت في تصوراته النظرية لمفهوم التأويل أصداء لمعارف شتى: عربية إسلامية يعضدها موروث راسخ وعريق، وغربيّة وافدة، كان أبرزها معطيات نظرية التلقي واستراتيجيتها المعروفة في إتاحة المجال لرؤية القارئ في إنتاج النص وتشكيله؛ لإبراز طاقاته من أجل إيضاح الدلالة التي روعيَت عند ضبطها قواعد التعامل المعتادة مع

(١) تقابلات النص ، ص ٢٩.
(٢) ينظر المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

النص القرآني وأخذ قدسيته بنظر الاعتبار.

وقد اجتهد كي ينقل (التقابل) بوصفه مصطلحا مقرونا عنده بالتأويل من فعاليته الضيقة وحدوده الحاضنة التي رسمتها البلاغة البديعيّة القديمة إلى رحاب النظرية بمفهومها الواسع القائم على استراتيجية تحاذي معاني النص ببعضها، وتقرّب بين عناصره ومستوياته المتقابلة عن طريق إحداث تواجه (تقابل) منتج بين موقفين ، أو بنيتين أو أكثر ممّا تشتمل عليهما النصوص الثرية، كاشتمال الكون عليهما، وحياتنا القائمة على أساس تقابلي.

سعى محمد بازي في تناوله سورة الفاتحة للوصول إلى قراءة بليغة ، تستثمر التأويل المتقابل بتوطيدها أواصر العلاقة بين بعض القضايا اللسانية والتأويلية والدلالية ؛ بهدف تحقيق انسجام الفهم في هذه القراءة، مما يؤكد ضرورة وجود تناغم هادف بين موضوع التأويل والمتلقي الذي تختلف نتائج تلقيه ومستوياتها –سلبا أو إيجابا– بلحاظ وجود هذا التناغم الهادف، أو عدم وجوده.

وإنّ هذه القراءة البليغة هي التي كشفت عن تقابلات النص التي ستبقى خرساء من دون القراءة التأويلية المعضّدة والساندة والموسعة لمدار التقابل، وفي تحليله لسورة الفاتحة على وفق الرؤية السابقة تفطّن إلى اشتمال هذا النص الثري على صنفين من البنى المتقابلة، أولاهما ثابتة يؤثثها النص عبر نسيجه اللغوي المتشعب والمشيّد للمعنى، وقد أرشدته هذه البنى التي عرضنا لها في المبحث الثاني إلى مناطق كمون الفنون البلاغية التي أظهرها مبيّنا ملامح إعجازها القرآني، أمّا البنى الثانية فمتغيّرة تتأسّس بالاعتماد على الأولى من طريق إجراء التأويل الذي يستنطقها لكي يبرزها بالفعل بعد أنْ كانت موجودة في أسر النص بالقوة.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم

٢. أصول التأويلية، جورج غوسدروف ، ترجمة: فتحي إنقزو، تقديم: محمد أبو هاشم محجوب، مؤمنون بلا حدود للدراسات والابحاث، المغرب، الرباط، ط١، ٢٠١٨م.

٣. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تح: أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث، القاهرة (د.ت) (د. ط)، ٢٠٠٦م.

٤. البُنى الاستعارية نَحو بَلاغة موسَّعة، د. محمد بازي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ومنشورات ضفاف، بيروت، ط١، ٢٠١٧م.

٥. التأويل التقابلي، مُقَدِّماتٌ لِمَعْرِفَة بَديلَة بالنَّصِّ والخِطاب، محمد بازي، منشورات ضفاف، بيروت، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ودار الأمان، الرباط، ٢٠١٣م.

٦. التأويلية العربية نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، د. محمد بازي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠١٠م.

٧. تقابلات النص وبلاغة الخطاب نحو تأويل تقابلي، محمد بازي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠١٠م.

٨. جواهر القرآن ودررهُ، أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، تحقيق: د. محمد نجران المحمد، دار الهادي، دمشق، ط١، ٢٠٠٦م.

٩. دليل الناقد الادبي، د. ميجان الرويلي، د. سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٠م.

١٠. صناعة الخطاب، الأنساق العميقة للتأويلية العربية ، محمد بازي، كنوز المعرفة للنشر والتوزيع عمان ، الاردن ، ط١، ٢٠١٥م.

١١. العنوان في الثقافة العربية، التشكيل ومسارات التأويل، محمد بازي، الدار العربية للعلوم ، بيروت، ومنشورات الاختلاف ، الجزائر ، ٢٠١١ م.

١٢. القرآن الكريم والقراءة الحداثية، دراسة تحليلية نقدية لإشكالية النص عند محمد أركون د. الحسن العباقي، دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط١، ٢٠٠٩م.

١٣. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله أبي محمود بن عمر الزمخشري ، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوّض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٩٩٨م .

١٤. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، مكتبة لبنان، ناشرون، (د.ط) ٢٠٠٧م.

١٥. المعجم الوسيط، ابراهيم مصطفى وآخرون، دار الدعوة، استانبول، (د.ط) ١٩٨٩م.

١٦. المنهج البياني في تأويل النص، د. محمد بن مريسي الحارثي، دار الانتشار العربي، بيروت، ط١، ٢٠١٥م

١٧. نظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة، د. جميل حمداوي، دار النابغة، طنطا، مصر ط١، ٢٠١٦م.

١٨. نظرية التأويل التقابلي، مقدمات لمعرفة بديلة بالنصوالخطاب، ، منشورات الاختلاف ، الجزائر و منشورات ضفاف ، بيروت دار الأمان، الرباط، ط١، ٢٠١٣م.

١٩. نظرية التأويل التقابلي، من التأصيل إلى التجريب، سليمة جلال، مجلة فتوحات، ع ٢، جوان ٢٠١٥

٢٠. الهيرمينوطيقا والفلسفة، نحو مشروع عقلي تأويلي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٨م.

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ